مساحة ود..

الليل والنهار

أعشق الليل ، لا أتحدث عن المساء والسهرة ، ولكنني أتحدث عن الليل بعد أن يستغرق الصغار في أحلامهم ، وينتظم تنفس الكبار في نوم عميق ، بعد أن تهجع الطيور في أعشاشها والحشرات في جحورها ، وتكاد تسمع صوت النبات وهو ينمو ويتنفس !

انذاك تشعر كأن النجوم والكواكب تقترب أكثر من الأرض ، وأن أطراف الأشجار العالية في الأماكن البعيدة التي لا تراها قد تلامس النجوم هناك !

انذاك تشعر أن الكون يسترد وحدته العظمى ، وأن المسافات الهائلة بين الكائنات وأنواع المخلوقات تتلاشى ، فالأرض والسماء والنبات والحيوان والإنسان جميعا يخضعون لايقاع الليل الذي يلفهم في وحدة عظمى من الظلام والسكون ، حتى الزمن تذوب فيه الحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فتسمع في وضوح رنين ضحكات تلاشت منذ سنين بعيدة ، وتسفر في قلب الظلام وجوه كنت تعتقد أنك نسيت ملامحها ، تهمس لك بكلمات كانت هي كل ما ترجوه من دنياك في ذلك الماضي البعيد !! وتعجب كيف انتهت أحزانك على فراق من أحببت ؟! كيف نسيت فقد الأم والأب الغاليين ؟ ويتسرب إليك يقين عذب بأنهما لا يمكن أن يكونا بعيدين في هذا الكون المتقارب المتآلف المنسجم ، وأنهما لن يعجزا أبدا عن فهم أن ما حدث منك لم يكن عقوقا أو نسيانا ، ربما كان النهار هو السبب ، هما يدركان ذلك دون ريب ، فالنهار الذي يلتهم الأحياء في حركته الصاخبة ، يلتهم الموتى كذلك ، ويلتهم كل ما هو رقيق وناء وحالم !

في الليل تكتشف قدرتك اللا محدودة على أن تكون رقيقا متسامحا متفاهما ، متجاوزا حدود ذاتك ، قادرا على أن تعيش بعض الوقت في عالم إنساني اخر !

وتأتي لحظة في الليل يمكنك أن ترى فيها بوضوح كيف حدث الالتباس ، ومتى بدأ الخطأ والزيغ ؟ ويدرك الرجال الأذكياء ذوو البصائر كيف أنهم لم يخدعوا سوى أنفسهم ، وقد يكتمون ضحكاتهم (حتى لا يوقظوا من بجوارهم) حين يكتشفون أنهم كانوا على هذا القدر من الحماقة !

في مثل تلك اللحظة قد يدرك الرجال العظام بشاعة ما فعلوه في النهار باسم المحافظة على القانون والنظام والحرية والعدالة !

في مثل تلك اللحظة ينادي الرجال العظام وهم يتقلبون في فراشهم بين اليقظة والنوم أمهاتهم اللواتي نسين على موتهن عشرات السنين ، ولكن لا أحد يرد النداء .

ربما يمتلىء يقينا بأنه في لحظات مثل هذه كانت البداية لكل الأشياء والنوايا والأفكار العظيمة والطيبة التي تصنع حقائق النهار الطيبة ، ودائما كان الليل والنهار يتناوبان إلى جوار صناعة الزمن صناعة الأحلام والحقائق . . . !

ولكنك قد تمتلىء بالرعب حين تتذكر أن النهار الآن يزحف على الليل ، يقتطع من ساعاته وسكونه وصفائه ، يسلم إليه رجالا ونساء مكدودين من العمل والخوف والحماقة ، فينامون أحياء كالموتى ، وحين يستيقظون على صحبة النهار فإنهم لا يتذكرون حتى أحلامهم !

أبو المعاطي أبو النجا